المقتطف

الجزء السادس من السنة الرابعة عشرة

١ آذار (مارس) سنة ١٨٩٠ الموافق ١١ رجب سنة ١٣٠٧

فساد مذهب الاشتراكيين

إنّا اذا التقت المجامع لم يزلْ ... منا لزاز عظيمة جشّامُها
ومقسّمٌ يُعطي العشيرة حقّها ... ومُعذّمٌ لحقوقها هضّامُها
فضلاً وذو كرمٍ يعين على الندى ... سمحٌ كسوبُ رغائبٍ غنّامُها
من معشرٍ سنّت لهم آباؤهم ... ولكلّ قومٍ سنّةٌ وإمامُها
فاقنعْ بما قسم المليك فانّما ... قَسَمَ الخلائق بيننا علاّمُها

وما لبيد بن ربيعة العامري ناظم عقد هذه الفرائد باول مَن نطق بهذه المعاني ولا هو آخر مَن علّقها على كعبة المجى ودعا الناس الى تعظيمها والعمل بها فان الحكماء والفلاسفة من اول عهدهم الى يومنا هذا قد رأوا الفرق الشاسع بين عشائر الناس وان المساواة بينهم ضربٌ من المحال اذ ساويتَ بينهم اليوم تفاضل بعضهم على بعض في الغد لان قوامهم متباينة من فطرتها . وهذه الحقيقة وحدها كافية لتقويض مذهب الاشتراكيين وغيرهم ممّن يطلب تقسيم المال بالسواء وحصر قوى البشر ضمن حدود لا تتعداها . الاّ ان المتقدمين كانوا ينسبون هذا التفاضل الى سببٍ البعيد وهو خالق الكائنات فلا يحاولون تقليله مباشرةً ولا تخفيف ما ينتج عنهُ من المضارّ الاّ من حيث لا يدرون كما في نشر وسائط التعليم والتهذيب التي تقلل الفرق بين طبقات الناس فانهم عزّزوها ومؤدّاها انهاض الساقط وتحكيم الجاهل وتقوية الضعيف ومقاومة ما يحسبونهُ امرًا محتومًا . واما علماء هذا الزمان فقالوا ان الاختلاف المذكور امرٌ طبيعي لهُ اسباب طبيعيّة قريبة

يمكن ازالتها او تخفيفها على الاقل . وجمهورهم على ان التمدن الحالي آيل الى إضعاف هذه الاسباب ونزع الشاين العظيم من بين الناس

وبعدُ فكلما ازدادت الامّة علمًا وزاد ارتباط افرادها بعضهم ببعض وصاروا كالبناء المرصوص امكن تنبيههم بالوسائط الادبيّة وانهاضهم الى استحسان امرٍ او استهجانهِ . فاذا خطَبتَ في احد محافلهم خطبة بليغة سمعتَ صداها يدوي من اقصى البلاد الى اقصاها واذا نشرت بينهم كتابًا رائعًا اقبل عامتهم عليهِ وخاصتهم كأنهم انسان واحد ينقاد لحكم عقل واحد بخلاف الامّة القليلة العلم الضعيفة الارتباط فانها تكون كبناء الطين تمرّ القنبلة فيهِ فلا تخرق منهُ الّا مقدار سعتها ومهما خطبتَ وكتبتَ لا تسمع لصوتك صدىً ولا تلقى ممّن تنادي مجيبًا

ومعلوم ان اهالي المغرب ولا سيّما الانكليز والاميركيين مشهورون باعمال البر التي يُقصَد بها تخفيف متاعب الناس وازالة نتائج الفقر فترى مدارسهم ومستشفياتهم منتشرة في بلادهم وفي كل المسكونة . والذين ينفقون على هذه الاعمال ليس لهم من ورائها غاية سياسيّة كما يتّهمهم البعض ولو استعملتها الحكومة احيانًا لغايات سياسيّة وانما هم مدفوعون اليها شفقة على الفقراء والمرضى والمحتاجين . ويقال ان السبب الاكبر الذي دفعهم الى ذلك هو روايات الكاتب دكنس الانكليزي فانهُ وصف الفقر والفقراء وصفًا هيّج الخواطر وفتح صناديق الاغنياء واهال منها النضار . والارجح ان دكنس ومن جرى مجراهُ احسنوا في الغاية ولكنهم اساءوا في الواسطة التي اشاروا بها لان الانفاق على الفقراء يزيدهم فقرًا . وخيرُ ما ساعدتَ بهِ انسانًا ان تجعلهُ يعتمد على نفسهِ لا على مساعدتك لهُ . ولم نرَ في حياتنا اسوأ حالاً ممّن يعيشون على الصدقات

وقد قام الآن كاتب آخر وحذا حذو دكنس في اهاجة الخواطر فصنّف رواية مثّل بها ما يكون حال البشر بعد مئة عام وقال انهم انتظموا في مملكة واحدة فتمت لهم الاعمال ووزّعت عليهم الخيرات بالسواء فعاشوا كافراد عائلة واحدة وانتفى من بينهم كل جهاد ومناظرة وزالت اكدار الحياة وهمومها وهذا غاية ما يتمناهُ المرء في الحياة الدنيا . وغرض المؤلف من وراء هذه الرواية الانتصار للاشتراكيين ووصف مبادئهم بالانصاف بين الناس وازالة دواعي التعب والقلق من بينهم ولكنهُ اساء في المقدمات والنتائج كما سيجيء وقد تصدّى لهُ الاستاذ وليم هرس الاميركي فنقد مزاعمهُ في جريدة النورث وهاك بعض ما ذكرهُ في هذا الصدد

قال ما مفادهُ ان عدم المساواة بين الناس الذي يعدهُ مصنّف هذه الرواية داء

الَّما لا يداوى الاَّ باقامة الحكومة قيِّمًا عليهم تُقسِّم الخيرات بينهم بالسواء انما هو حادث عن اقتصاد البعض واسراف البعض الآخر ولم يرَ الحكماء سبيلاً لملافاتهِ حتَّى الآن الاَّ تعليم المسرفين وتهذيبهم حتَّى يقلعوا عن الاسراف ويتدرَّعوا بالاجتهاد والنزاهة . واما الاسلوب الذي اشار بهِ المصنِّف فمؤدَّاهُ نسخ الاقتصاد وازالة كل اسباب الاجتهاد لان سعي الانسان ليس لنفسهِ حينئذٍ بل لغيرهِ ورزقهُ واصل اليهِ سعى ام لم يسعَ اذ ان الحكومة تأخذ الخيرات كلها وتوزعها على الرعيَّة بالسواء . وما مثَل المصنِّف الا مثل طبيب رأى العلة في جسم العليل فاشار بقتلهِ لكي تُقتل العلة او مثل مَن يشير باستئصال الحرِّية لاستئصال ما ينتج عنها من الشرور او باستئصال نوع الانسان كلهِ لاستئصال شرورهِ كما يشير البوذيون وهم ثلث البشر

وفي هذه الرواية وكل الروايات والكتب الَّتي من نوعها مبدآن اساسيان اولهما ان النظام الحالي يزيد غنى الاغنياء وفقر الفقراء والثاني ان غنى الاغنياء مأخوذ من الفقراء او بعبارة المصنِّف « أن ثروة البشر قد زادت زيادة فاحشة ولكنَّ هذه الزيادة استأثر بها الاغنياء فزاد البعد بينهم وبين الفقراء » وان « الجزاء لا يتوقف على نوع العمل وما يحتَّ بهِ من المخاطر والمتاعب (اذ ان اشق الاعمال واكثرها خطرًا يعملها العملة الذين هم اقل الناس اجورًا) بل يتوقف على حاجة الَّذين يعاملونهُ » . وقد اظهرنا قبلاً فساد هذين المبدأين في مقالة سابقة عنوانها الغنى والفقر ادرجناها في الصفحة ٥٧٥ من المجلد الثالث عشر من المقتطف وابنا هناك ان النظام الحالي يزيد خيرات الارض وغنى الاغنياء والفقراء معًا ولا يخصُّ بهِ فريقًا دون فريق وان غنى الاغنياء ليس مأخوذًا من الفقراء بل من خيرات الارض . وقال الاستاذ هرس في تفنيدها ان اولها وَهْم محض لا يؤيِّدهُ الاختبار واول مَن قال بهِ الكاتب كارل ماركس الذي قابل بين احوال الفقراء والاغنياء ببلاد الانكليز . ووقائع الحال تناقضهُ على خط مستقيم فان متوسِّط دخل الفقراء كان في بلاد الانكليز سنة ١٨٥٠ نحو ٥٣ جنيهًا في السنة لكل عائلة منهم فصار سنة ١٨٨٠ نحو ٨٣ جنيهًا في السنة والاواسط الَّذين دخل العائلة منهم بين ١٥٠ جنيهًا و ١٠٠٠ جنيه في السنة زاد عددهم سنة ١٨٨٠ عما كان سنة ١٨٥٠ ضعفين ونصفًا والذين دخلهم بين الف جنيه وثلاثة الاف جنيه زاد عددهم في هذه المدة ضعفين فقط . وهكذا الحال في الولايات المتحدة الاميركيَّة . وقد اثبت الاقتصاديان كاري وباستيان هذه الحقيقة بعد طول البحث والاستقراء وهي " انهُ اذا زاد رأس المال فالربح الناتج منهُ يذهب اكثرهُ الى العملة واقلهُ الى اصحاب رأس المال "

وهذا يحصر ربح الاغنياء ضمن حد محدود

والمبدأ الثاني لا صحة له في النظر ولا في العمل لان الغني يبتدئ بالاقتصاد فالمسرف ينفق اموالهعلى ملذاته فيفتقر والمقتصد يحرم نفسهُ الملذات ويبتاع بما يقتصدهُ بضاعة او عقارًا فتزيد خيرات الارض وتسهل طرق المعيشة على سكانها ولذلك ترى ان المنازل والمخازن والمعامل والجسور قد بنيت باموال المقتصدين والارض اتقن ريها وزرعها باموالهم وبهم سهُل نقل البضائع ورخص ثمنها وكثرت الخيرات وخفَّ التعب اللازم للحصول عليها. ويزداد نفع الاغنياء المقتصدين بين الجماعات التي مثلهم ويقل بين الكسالى المسرفين الذين لا تكاد الخيرات تصل الى يدهم حتى يبذروها ولذلك فكل ما يبنى على هذين المبدأين الفاسدين فاسد في نفسهِ ومضرٌّ في نتيجتهِ. انتهى

وهنا يخطر لنا ما هو مشاهد في بلاد المشرق من البذخ والاسراف في الاعراس والمآتم فانهُ اذا نُظر الى ذلك من حيث اظهار البهجة والسرور او الحزن والاكرام فلا بأس بالانفاق لمن ينفق عن سعة ولكن قد يُحسَب ذلك في بادىء الرأي نافعًا لانهُ يدعو الى اشتراك الفقراء في اموال الاغنياء وهذا فاسد لان هذا الاشتراك وقتي كسحابة صيف وخيرٌ منهُ الانفاق على عمل نافع تجاري أو صناعي او زراعي يربح منهُ الغنيُّ والفقير معًا

وغاية الشرائع في هذه الايام الحرية الشخصيَّة واطلاق العنان للمجتهدين ليحصّلوا من خيرات الارض قدر ما يستطيعون . وقد نتج من ذلك في البلدان التي تحافظ على الحرية الشخصيَّة اتمّ المحافظة كالولايات المتحدة أنْ رخصت الخيرات وزادت الثروة وصار كل احد قادرًا على تحصيل معيشتهِ بالقليل من التعب . وقد قدّر الاستاذ هربس ان متوسط دخل كل فرد في الولايات المتحدة كان سنة ١٨٥٠ نحو خمسة غروش في اليوم فصار سنة ١٨٨٠ نحو ثمانية غروش وسيصير سنة ٢٠٠٠ نحو ٥٢ غرشًا اذا بقيت الولايات المتحدة متقدمة على النسبة الحاليَّة . ثم ان وسائط تحصيل الخيرات من الارض ستزيد اتقانًا سنة فسنة فترخص المعيشة جدًّا وتزول كل دواعي التعب الاَّ اذا استولى على نوع الانسان الكسل فتضعف لقلة العمل وانتابتهُ الامراض والعلل وهذا بعيد الاحتمال لان العلوم الطبيعيَّة والصحيَّة جارية مع العمران فتصلح ما يدخلهُ من الفساد

وجملة القول ان النظام الحالي آيل الى اصلاح شؤون الناس وتقليل البون الشاسع بين الاغنياء والفقراء وان المبادئ الاشتراكيَّة مضرَّة كيفما اذيعت